وهناك، ليس في الطبيعة، وانما في الدرجة، التي وصل اليها تطور الأمور، ولكن تؤلف اسرائيل عنصراً هاماً في الحالة العربية.

إذن ثمة مرتكزات متنوعة يستند اليها الطرح الرجعي، وتتفاوت هذه المرتكزات في صلابتها من مكان لآخر، ومن فئة اجتماعية لأخرى، ومن زمن لآخر، وقد تتطور في مكان ما باتجاه التصلب، وتتطور في مكان آخر باتجاه الهشوشة.

تعجيز القوى التقدمية يتلخص في مخاطبتها بطريقة أو بأخرى، في أنها غير قادرة على شيء، وفي أن ما تطرحه، هو مجرد شعارات (أي شعارات فارغة)، وفي أنها تتصرف بشكل متهور، وتعرض المنطقة للخطر؛ وتسألها في كل مرة تجد فيها فرصة، إن كانت لديها القدرة، لتحارب اسرائيل، وإن كانت تستطيع، أن توجد أي سبل أخرى في معالجة موضوعات الاحتلال الاسرائيلي، غير السبل الرجعية، التي تنفذ عملياً؛ وتسألها، إن كانت تستطيع، أن تدفع الاتحاد السوفيتي الى المجابهة المباشرة.

هذا المنطق تروج له الانتلجنسيا اليمينية، بأشكال مختلفة، ويجد صدى لدى فئات عديدة، لا بفعل التأثير الدعائي وحده، وانما أيضا لأن الرجعية نفسها مقبولة كصيغة لتنظيم المجتمع. إن قبول الرجعية كواقع سياسي واجتماعي واقتصادي، يجعل من العسير بشكل عام الفهم، بأن الرجعية نفسها هي سبب كل علة، سبب الضعف، سبب التمزق، سبب النفوذ الاحتكاري والرأسمالي، سبب الاحتلال، الخ، وبأن الطريق الى التطور يمر بالمزيد من محاصرة الرجعية، لا بالرجوع اليها، وإلى خطها. لكي ينقض المرء المنطق الرجعي، يجب أولا أن تكون الرجعية غير مقبولة لدية، وحينئذ يستطيع بسهولة أن ينقض حججها واحدة واحدة.

٥ـ المناداة بالقومية الشوفينية وبالدين.

إن الدين والقومية يؤلفان لدى كل الشعوب، في مرحلة من المراحل، عامل تقدم، وتطوير. مثلا، كانت اليقظة العربية قبيل الحرب العالمية الأولى واثناءها، عامل تطور هام على صعيد البلدان العربية، إذ أنها فصلت عددا من هذه البلدان عن الاستبداد التركي، الذي أبقاها سنين طويلة في ظلمة القرون الوسطى؛ لكن تلك اليقظة كانت محرضة من قبل الرأسمالية الأوروبية، وتهدف هذه من ورائها، إلى اقتطاع أجزاء السلطنة العثمانية لصالحها؛ وتحقق الهدف، فاحتلت البلدان العربية من قبل البلدان الأوروبية؛ لذلك كان لابد من تطور العمل الوطني، لجعله يتناقض مع الاحتلال الأوروبي القائم،؛ وحصل ذلك ونمت اثناءه نزعات قومية اقليمية في كل مكان، ونتج أخيرا وتدريجيا استقلالات سياسية في أغلب المنطقة العربية؛ والاستقلال حمل الى الساحة تناقضا جديدا، هو التناقض مع الاستعمار الجديد، أي مع السيطرة السياسية ـ الاقتصادية للاحتكارات العالمية، وهذا يستدعي تطوير العمل الوطني ليأخذ أبعادا اجتماعية واقتصادية، الى جانب الأبعاد السياسية. في كل مرحلة من تلك المراحل، التى مررنا عليها بشكل مقتضب، يؤلف الرجوع الى المفاهيم القومية السابقة رجعة الى الوراء، وتكمن في ذلك عملية شد الى الخلف، من أجل الحفاظ على مصالح سياسية معينة. مثلا الرجوع الى مفاهيم اليقظة العربية في الفترة العثمانية، التي كانت عامل تقدم في حينها، يؤلف عملية تكريس للأنظمة الاقطاعية، التي نجمت عن تلك اليقظة، وللقوى والاحتكارية، التي من مصلحتها الابقاء على تلك الأنظمة؛ والرجوع الى المفاهيم القومية، التي ظهرت في فترة الكفاح من أجل الاستقلال السياسي عن المتروبول، سواء كانت عربية أم اقليمية، يؤلف عملية تكريس لنفوذ القوى الكومبرادورية، التي نشأت في تلك الفترة، ولنفوذ قوى الاستعمار الحديث، التي تكمن خلفها.

يمكن ان تكون القومية قوة روحية محركة في طريق التقدم، إذا لم تؤلف قوة شد الى الوراء،